

# التعاون في مواجهة الشدائد: المهاجرون والمساعدون في «سانغات»

بقلم: هنري كوراو

نتائج مباريات كرة القدم أو الكرة الطائرة التي ينظمها المهاجرون من جنسيات مختلفة . وتقع «المدينة الوسطى» بجوار مكاتب الصليب الأحمر والمقصف والعيادة ومرافق الاغتسال . وبينما نجد الأطفال يلعبون، نرى الرجال يشاهدون التلفزيون الفرنسي ويتبادلون النكات ويتشاحنون ويتعاونون ويشتركون . وبدور بالذكر أن الكثير من السلع المعروضة للبيع تمر من فتحات في جدران العنبر لتحاكي الكشف عنها أمام سلطات الأمن على البوابة .

إنجلترا مهما كان الثمن في أواخر النهار تبدأ الطقوس اليومية بتدفق عشرات من الأشخاص من البوابة وهم يخفون معهم بطاطين الصليب الأحمر التي سيتقنون بها البرد والأسلاك الشائكة المكهربة، وبعض البسكويت والكوكاكولا للرحلة، وزجاجة للتبول إذا اضطروا للبقاء مدة طويلة داخل شاحنة من الشاحنات . ويرتدى الكثيرون منهم عدة بنطلونات وقمصان وسترات ويحملون كل ما يمتلكون من متاع الدنيا في حقائب على ظهورهم، بقصد أن يتخلصوا من الطبقة الخارجية من الملابس المتسخة ليحافظوا على مظهر لائق عندما يصلون إلى إنجلترا .

وفي حوالي العاشرة مساء يصل إلى سانغات أول فوج من «شرطة التاكسي» وهو الاسم الذي يطلقه المهاجرون على الشاحنات الصغيرة للشرطة، لتفرغ حمولتها من الأشخاص الذين ضبطتهم قبل احتشادهم في داخل الشاحنات، فنجدهم بهزون أكتافهم ويقولون بنبرة متفلسفة «لا حظ لنا اليوم، الشرطة تحكم قبضتها . غداً إن شاء الله» .

ويتزايد التعقيد في عملية عبور المانش مع قيام مسؤولي السكك الحديدية والشرطة الفرنسية وسلطات ميناء كاليه وشركات الشحن البحري بوضع ضوابط وترتيبات صارمة باطراد للكشف عن المخالفين للقانون . ويعتبر المهاجرون مباريات كرة القدم من أفضل الفرص لعبور المانش دون أن يكتشفهم أحد، فمن المعروف أن رجال الشرطة الفرنسية ساعدها يتسمررون أمام شاشات التلفزيون ولا تفارقها أعينهم .

## المهريون

بعد فترة وجيزة يسهل التعرف على مهربي الأشخاص، فهم يعيشون في سانغات ولكنهم لا يتناولون طعامهم في المقصف، ويمتلكون أجهزة التلفزيون المحمولة وهم الوحيدون الذين يعودون من ميناء كاليه والابتساماة تلو

منذ افتتاح مخيم سانغات في عام ١٩٩٩ مر عليه أكثر من ٥٥ ألف شخص .

ورغبتهم التي يكررون التعبير عنها هي أن «يعيشوا كالتاس العاديين» . وتعد إنجلترا بالنسبة لهم مكاناً مكتسباً بهالة فردوسية: «البريطانيون يعطونك الفندق وأطياب الطعام، والناس يسعدون باستقبالك... إن توني بلير في انتظارنا» .

وتمثل المجموعة الكبيرة من القصر الذين لا رفيق معهم في مخيم سانغات عبئاً من نوع خاص على الصليب الأحمر الفرنسي الذي يتولى إدارة المخيم، إذ يعتبر الصليب الأحمر مسؤولاً مسؤولية قانونية عن ثقل أعمارهم عن الثامنة عشرة، ولما يقر أحد من القصر الموجودين بالمخيم، وعددهم ٢٥٠، بأنهم دون الثامنة عشرة، إذ يحاولون إقناع المسؤولين عن الاستقبال بأنهم بالغون، لكنهم كثيراً ما ينكشفون عندما يسألون عن سنة ميلادهم .

## داخل مخيم سانغات

سانغات مستودع تبلغ مساحته 25 ألف متر مربع، وقد كان يستخدم فيما سبق في أثناء بناء النفق الذي يربط بين إنجلترا وفرنسا ثم خصصته الحكومة الفرنسية لإيواء المهاجرين الذين يحاولون عبور بحر المانش (القتال الإنجليزي) بدلاً من تركهم ينأمون في العراء في شوارع مدينة كاليه . وفي داخل المستودع يقيم المهاجرون في خيام، أو في كبائن إذا كانوا أفضل حظاً من غيرهم .

ويعتبر مركز الحياة الاجتماعية في سانغات هو السوق غير الرسمية التي أقامها المهاجرون، حيث يجدون الأطعمة والأشياء التي لا يوفرها لهم الصليب الأحمر . وعندما يرجع الرجال سيئو الحظر بعد محاولاتهم الفاشلة في أثناء الليل وهم جياح فإنهم يعزّون أنفسهم بتناول السندوتشات والمشروبات الغازية والبسكويت والمكسرات والفطائر ويتدخين السجائر . كما تباع الأقلام وبطاقات التلفزيون وأجهزة الراديو ذات الموجة القصيرة في «المدينة الوسطى»، وهو الاسم الذي يطلقه المهاجرون على ساحة مفتوحة واسعة في منتصف عنبر سانغات . وبعيداً عن أعين المسؤولين يمكن أن يجد المرء أشياء أخرى

للبيع مثل البطاطين والأسرة والملابس والأحذية والأظم النظيفة من الملابس المعقمة التي توزع على المصابين بالجرب، أو أماكن الإقامة في الكبائن التي يتطلع إليها الكثيرون . كما يمكن أن يراهن الراغبون على

وكان هذا المخيم قد صمم أساساً لاستيعاب ٨٠٠ شخص، لكن الأعداد الموجودة به في عام ٢٠٠٢ وصلت إلى ١٣٠٠ شخص ممن تعتبر أوضاع إقامتهم «شاذة» . ويصل عدد الجنسيات الموجودة في هذا الموقع إلى نحو ٥٠ جنسية، ويعتبر الأكراد العراقيون أكبر مجموعة فيهم جميعاً، ويليهما الأفغان والإيرانيون . وتتفاوت الأعداد المتدفقة أسبوعياً على سانغات تبعاً للأوضاع العالمية ويبلغ متوسطها ٥٠٠ شخص . ويلاحظ أن ٩٥٪ من المقيمين في سانغات رجال غير متزوجين، ويبلغ متوسط أعمارهم ٢٣ عاماً . وكان كثيرون منهم قد تركوا ديارهم استجابة لطلب أسرهم، وفراراً من انتهاكات حقوق الإنسان؛ ويتمتعون بالحرية في الذهاب والمجيء كيفما يشاءون . ولكن لا يسمح بدخول المخيم إلا لمن لا يحملون بطاقات هوية، إذ يمنع رجال الأمن دخول كل الصحفيين والمصورين والمتفرجين والأسلحة .

ويعتبر مخيم سانغات المحطة الأخيرة قبل رحلة المهاجرين إلى إنجلترا، وهو القبلية المنشودة التي ظلت تداعب خيالهم على مدى الشهور والأعوام التي قضوها في السفر . وقد أنفق معظم هؤلاء ما يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف جنيه إسترليني، واستوقفهم سلطات الحدود مراراً، وكثيراً ما اضطروا للتراجع وغالباً ما تعرضوا للسجن . لذلك اعتادوا على إخفاء هويتهم، وعند وصولهم إلى سانغات فإنهم لا يكشفون مطلقاً عن أسمائهم الحقيقية .

وقد روى لي طبيب عراقي عربي قصة تعتبر نموذجاً لما مر به المقيمون هناك، وهي أنه اختبأ لمدة ستة أشهر على سطح مدرسة في العراق، سعياً للفرار من الاضطهاد الذي يكابده على يد نظام الرئيس العراقي صدام حسين؛ وكان يقات على الأرز والبسكويت وكانت تسليته الوحيدة الاستماع إلى الدروس التي يتلقاها الأطفال في الطوابق التي تقع تحته . وفي كل ليلة كان يخرج ليتحين الفرصة للتسلل عبر الحدود إلى تركيا . والآن أصبح يخرج في كل ليلة مثل كل الباقين في سانغات ليحرب حظه مرة أخرى .

ومن الصعب تحديد ما إذا كان يصح تسمية هؤلاء الأشخاص باللاجئين السياسيين أو المهاجرين بدوافع اقتصادية . فجميعهم فروا من مواطنهم بحثاً عن مستقبل أفضل وأكثر أمناً،

فالعاملون يأتون وفي أذهانهم تصورات مبدئية عن اللاجئين باعتبارهم يتسمون بالوداعة ويشعرون بالامتنان للمساعدات التي يحصلون عليها، ثم لا تلبث هذه التصورات أن تتراجع مع فتور إحساسهم بالشفقة، إذ يتحول الكثيرون إلى الاعتقاد بأن اللاجئين بطبيعتهم تنقصهم الأمانة ويميلون للتخريب. وعندما تتوتر الأعصاب فمن الشائع أن تسمع المهاجرين يتعجبون بقولهم «لسنا حيوانات!»، وفي ذات مرة رأيت مجموعة من المهاجرين يرفضون الخروج من كابينتهم حتى يتم تنظيفها خشية أن يطردوا منها، ويردون على إصرار العاملين بالموقع بسبيل من الإهانات الفرنسية المعروفة، واحتدم الصراع بين الفريقين فما كان من أحد العاملين بالمركز إلا أن عقب بقوله «كم أحب صدام حسين!».

### الهبة والسلطة

تؤدي الأنشطة المشروعة وغير المشروعة داخل المخيم إلى تشكيل علاقات السلطة فيه، فبعيداً عن السلطة التي يتمتع بها مسؤولو الصليب الدولي على المهاجرين، نجد أن المهاجرين أنفسهم ينقسمون إلى طبقات على أساس أن البعض منهم يحصلون على أشياء من العاملين، والبعض الآخر لا يحصلون على شيء، كما ظهر نوع مماثل من الترتيب الهرمي بين العاملين. وهكذا أصبحت هناك ثلاث محاور للقوة بين الصليب الأحمر والمهاجرين، وفي داخل دوائر المهاجرين والعاملين، وهذه المحاور تتشكل في ضوء علاقات المنح والتمنع والتلقي، الأمر الذي يؤدي إلى التأثير على الطريقة التي تنظر بها كل جماعة إلى الجماعات الأخرى وتسيء فهمها، ويؤدي إلى أن يخيم في الأفق دائماً شبح عدم الاستقرار وانقلاب موازين السلطة.

إن فئة المهاجرين والفئة التي تقدم لهم العون ليس لديهما الوقت ولا الفرصة لتتعرف إحداهما على الأخرى أو لإقامة روابط اجتماعية بينهما. فللمهاجرين نظامهم الإداري الخاص بهم، الذي ينبع من احتياجاتهم ورغبتهم الجارفة في الوصول إلى إنجلترا ومغادرة فرنسا، ولكن الصليب الأحمر يعتبر هذا النظام نظاماً غير قانوني. ويرى العاملون بالصليب الأحمر أن الحياة لا بد أن تستمر. أما اللاجئون فيظلون مسافرين أو رحلاً، وتدفعهم نفس الآمال التي دفعت الآلاف الذين مروا عبر سانغات قبلهم.

هنري كوراو طالب يعد رسالة دكتوراه في الأنتروبولوجيا بكلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس، وهو مشارك في وحدة البحوث ١٠٢ بمعهد بحوث التنمية. ويعمل حالياً مع الصليب الأحمر في سانغات.

عنوان البريد الإلكتروني:

henricourau@yahoo.fr

القطارات المارة أو السقوط من القطار بعد الصعود إليه.

### الصليب الأحمر الفرنسي

للصليب الأحمر الفرنسي فريق من الأخصائيين الاجتماعيين مهمتهم مساعدة أي مهاجر يرغب في طلب اللجوء إلى فرنسا. ويحضر هؤلاء الأخصائيون دورات تدريبية ويعقدون الندوات بصفة منتظمة حول الإجراءات الخاصة باللجوء، ويقضون وقتاً طويلاً في تبادل الحديث مع الناس في محاولة لتخفيف إحساسهم بالتوتر ومساعدة أكثر المقيمين ضعفاً وإقامة الصلة بين المهاجرين وبين إدارة المخيم. ولكن الأخصائيين الاجتماعيين لا يجدون إلا فرصاً محدودة لتقديم المشورة بشأن اللجوء، فلم يزد عدد من تقدموا بطلب البقاء في فرنسا عن ٤٠٠ شخص، أي ٨,٠٪ من العدد الإجمالي لمن يمررون عبر سانغات. وكثير من هؤلاء يتخلون عن طلباتهم ويتجهون إلى إنجلترا، وإذا رفضتهم المملكة المتحدة فعندئذ لا يستطيعون العودة إلى فرنسا أو إلى أي دولة أخرى من دول اتفاقية «شنغن».

ولا يتمتع الصليب الأحمر بخبرة سابقة في إدارة أي منشأة مثل سانغات، فهي ظرف لم يسبق له مثيل في تاريخ مؤسسة اللجوء الحديثة. ويتسم العمل فيه بأنه مرهق إلى حد بعيد، وتنتشر فيه الشائعات دائماً عما سيحدث للمركز أو عن خطط السلطات إزاءه. ويتعرض العاملون بالمركز والصليب الأحمر لاحتمال تشويه صورتهم وللأكاذيب واللمز من جانب وسائل الإعلام. ونظراً لموقع المخيم على مفترق هام للطرق في أوروبا فإن الأضواء تبقى مسلطة عليه دائماً، وبفضل سهولة المواصلات بينه وبين باريس ولندن وبروكسل فإن الصحفيين والمصورين دائماً ما يقفون على بابه ويلحون على العاملين به ليسمحوا لهم بالدخول.

وتكثر النزاعات المهنية والشخصية داخل الإدارة والعديد من فرق العاملين، وتشيع بينهم الشكاوى والمكائد وتسوية الحسابات. وفي أول يوم لي في سانغات طلبت المشورة من أحد زملاء فقال لي «إذا كان في ذهنك أي أفكار، فلتتسها»، فشعرت بخيبة أمل من تولد هذا الإحساس بالمرارة إلى هذا الحد عند تلك المجموعة من العاملين في مجال الإغاثة الإنسانية.

وجوهم في أغلب الأحيان، ومعظمهم يحملون أوراقاً تعطيمهم وضعاً شرعياً في المملكة المتحدة أو في إحدى دول اتفاقية «شنغن». ويحكم ارتباطهم بشبكات التهريب متعددة الجنسيات فإنهم يستخدمون عملاء لهم داخل المخيم ليلتقطوا الوافدين الذين قد يكون معهم قدر من المال، ويظلون دائماً يبحثون عن رجال الأعمال والمتعلمين والتجار الذين يستطيعون تدبير ما يتراوح بين ٢٠٠ و٧٠٠ جنيه إسترليني نظير عبور المانش إلى إنجلترا.

ويعتبر المهاجرون أن المهريين أسفل السفلة؛ ويقوم هؤلاء المهريون باصطحاب زبائنهم إلى الشاحنات، وقد يتجشمون أحياناً عناء غير مألوف لمساعدتهم، فقد قيل إن أحدهم ذات مرة ساعد مهاجراً مقعداً يستعمل كرسيّاً متحركاً في الانتقال إلى إنجلترا دون مقابل. ولكن المهريين في معظم الأحوال لا يتورعون عن التخلص ممن يهددون مصالحهم ولا يترددون في ذلك حتى لو أرسلوهم إلى إنجلترا دون الحصول على مال منهم.

ولكل مجموعة من المهريين المنتمين إلى جنسية معينة منطقة خاصة بها. ويعتبر ميناء كاليه من اختصاص الأكراد الذين يدافعون عنه بهمة ضد الأفغان الذين اشتبكوا معهم في صدام كبير في شهر مايو/أيار. أما النفق فهو مفتوح للجميع وإن كان مكاناً مخيفاً بسبب الكلاب الرهيبة والحواجز المكهربة فيه، وخطر التعرض للموت تحت عجلات

ياضلة تحذيرية على السياج المحيط بمحطة بروسنار، كاليه، فرنسا، أبريل/نيسان ٢٠٠٢

